الفصل السادس

العهـــد ..
(عنـد الحجـر المنتصب)
عـلى النصـب

بعد أن قام يعقوب بخدمة خاله « لأبان » عدة سنوات ازدادت فى أثنائها ثروته فى الأغنام والماعز بفضل نشاط يعقوب ومهارته ، مـل الأخير هذه الخدمة الطويلة وقررأيه على أن يعود بزوجاته وأولاده وكل ما معه الى أرض آبائه • ويحق لنا أن نفترض أن ما دفع يعقوب لأتخاذ هذا القرار ليس مجرد الحساسه بالحنين لوطنه • حقا لقد كان يعقوب قد مل هذه الحياة ؛ هذا فضلا على أن نبض شبابه الدافىء ، إن كان قد عرف هذا النبض أصلا ، كان قد كف عن تحريك مزاجـه الواقعى البارد فى جوهره • ومع ذلك فهو لم يتخذ هذه الخطـــوة مدفوعا بحنينه الى مرتع صباه وحبه لوطنه ، وإنما المحتمل أكثر مـن ذلك أنه كان قد أخذ يحسب فى هدوء مكسبه المادى من خدمته لخاله • حقا أنه كان سعيدا بأنه استطاع بفضل اجتهاده ومكره معا فى غضون هذه السنوات أن يحتفظ بثمرة قطعان الماشية فى حظيرته بدلا من أن يحتفظ بها فى حظيرة خاله ، ولكنه كان يرى أنه ما زال قادرا على أن يغنم أكثر من ذلك • ولقد كان قد اعتصر الرجل الكهل كمـــا تعتصر الليمونة ؛ وكان الوقت قد أصبح مناسبا تماما لأن يستخدم موهبته فى مجال آخر يدر عليه مزيدا من المكسب • ولكنه لما رأى بثاقب فكره أن خاله يمكن أن يعترض على رحيله بالجـزء الأكبـر من قطعـــان الماشية ، فقد قرر فى شىء من التريث محاولة تجنب المشاحنات العائلية ؛

بأن يهرب فى أثناء الليل فى ضوء القمر • ولكى يقوم يعقوب بتنفيذ هذه الخطة ، كان يتحتم عليه أن يطلع زوجاته على هذا السر ولكنه يبدو أنه شك فى طريقة استقبالهن لهذا النبأ ، ولهذا فقد فاتحهن فى هذا الموضوع فى شىء من الرفق . فبدأ حديثه معهن بنغمة متملقة وأخبرهن بتغير سلوك أبيهن معه • ثم حكى لهن بعد ذلك فى روع زائف كيف أن الرب ناصره فحول قطيع أبيهن من عنده اليه • ولكى يخلع على المؤامرة مزيدا من الحبكة ، أخبرهن فى نهاية الأمر ، والوميض يسطع فى عينيه ، فيما يبدو ، كيف أنه رأى رؤيا فى الليلة الماضية ظهر له فيها ملاك الرب وطلب منه أن يرحل الى وطنه • ولم يجد يعقوب ضرورة بعد ذلك لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدين الأستعداد للموافقة على خطته ، وأعلن فى صراحة يمازجها الريب — بأنهن يضعن أنفسهن فى خدمته • بل إنهن رفعن أصواتهن بالشكوى اليه من أن أباهن المبذر قد ضيع الثروة التى كان قد قبضها ثمنا لزواجهن ، ولم يعد لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن • ومن ثم فقد أبدين الاستعداد للتنكر لأبيهن ومرافقة زوجهن الى البلاد الغربية النائية التى تقع فيما وراء النهر الكبير • ولكنهن قبل أن يجهزن أمتعتهن استعدادا للرحيل تذكرت « راحيل » الذكية ، لحسن الحظ ، أن أباها على الرغم من أنه لم يعد يملك أى شىء ، الا أنه مازال يحتفظ بالآلهة المنزلية التى ربما استاءت لهذا التدبير المدبر ضد صاحبها ، فتحاول أن تدرأ عنه ما يلحق به أذى وأن تعاقبهم جزاء إثمهم • ومن ثم فقد احتالت لسرقة هذه الآلهة وأخفتها بين أمتعتها دون أن تخبر زوجها بذلك ، اذ كانت تخشى أنه ربما وقع تحت وطأة وخز ضميره ، فيرد الآلهة المسروقة الى صاحبها •

وعلى هذا النحو كانت الأسرة على استعداد للرحيل ، وانتظرت اللحظة الحاسمة التى تتمكن فيها من الرحيل خلسة دون أن يقع عليها بصر أحد • وقد حانت هذه اللحظة عندما رحل « لابان » ليقضى بضعة أيام فى عيد جز الأغنام • عند ذاك همت القافلة بالرحيل ، أما النساء

والأطفال فقد ركبوا الإبل وقد سارت من قدامهم ومن خلفهم قطعان الماشية التى ملأت الجو بثغائها • وقد كان سير القافلة بطيئا بالضرورة ، اذ لم يكن يتسنى للأغنام والماعز أن تسير سيرا حثيثا . ولكنها كانت قد استمرت فى سيرها طيلة يومين . عندما علم « لابان » فى اليوم الثالث برحيلهم ، فخف مع أخويه ليلحق بهم • وبعد مسيرة شاقة دامت سبعة أيام تقابلوا مع طابور طويل من الهاربين يسير سيرا متثاقلا بين غابات جبل جلعاد الجميلة • وربما كان الهاربون قد وصلوا الى مكان فسيح فى الغابة ، حيث أخذت الأغنام ترعى فى الموج الخضراء ، وربما كانوا قد وصلوا الى وهدة عميقة حيث كانت الإبل ترعى فى أجمة قصب ، أو حيث كان قطيع المواشى يشق طريقه فى مياهها • وعلى كل فقد نشب الشجار بين الطرفين عند ذاك • وبدأ لابان حملته على يعقوب بتأنيبه بصوت جهورى على سرقة آلهته وسلب بناته كما لو كن أسرى حرب • ولم يكن يعقوب يعلم شيئا عن سرقة الآلهة ، فرد عن نفسه هذه التهمة فى حرارة بالغة ، وقال له أنه ليس بلص أو مدبر لسرقة أشياء تعد ملكا له شخصيا وعليه أن يقوم بتفتيش أمتعتهم ، فإن هو عثر على الآلهة فى أمتعة أحدهم فله الحق عندئذ أن يقتل السارق • وعند ذاك قام « لابان » بتفتيش الخيام خيمة بعد الأخرى فى دقة . ولكنه لم يجد أثرا للآلهة ، لأن راحيل الذكية كانت قد أخفت التماثيل فى محفة الجمل وجلست فوقها وهى تضحك فى أكمامها ، بينما كان والدها ينقب بدقة فى خيمتها •

وقد كان فشل لابان فى العثور على الآلهة المسروقة دافعا لأن يسترد يعقوب ثقته فى نفسه تماما • اذ من المحتمل أنه كان قد شعر فى بداية الأمر بالخزى فى مواجهة خاله الذى خدعه وتركه فى موقف حرج للغاية • أما الآن فقد بدأ يشعر أنه كسب موقفا أخلاقيا ساميا ، ومن ثم فقد انقلب على خصمه الخجل ، فى حذق بالغ وانهال عليه يكشف له حقارته الأخلاقية • فرد عن نفسه التهمة الى دبرها له بسرقة الآلهة ، و صرح له بأن زوجاته وقطعانه حق له بعد أن قام بخدمته

متفانيا طيلة سنين عديدة • ثم أسهب فى نغمة مثيرة للشفقة ، فى شرح الصعاب التى تحملها فى خدمة قطعان ماشيته ، وروح الشرف التى كان يباشر بها عمله • ثم ختم خطبته الملتهبة بتهديد خاله بانه لو لم يكن يتلقى الرب المعين له ، لجعل خاله خادما مخلصا له ، وجعله يعيش بلا سترة على ظهره أو مليم فى جيبه • ولم يكن للخال أية وسيلة للمعارضة أمام هذه الفصاحة البالغة ، بل أنه بدأ يشعر بأنه لم يبلغ باع زوج بناته فى الفصاحة والقدرة على الخداع • ولا بد للانسان ، لكى يقف منه موقف المناوىء ، أن يكون متزودا بأسلحته • ومن ثم فقد اكتفى « لابان » بأن رد عليه فى حزن بأن بناته وأطفالهن وقطعان ما شيته قد أصبحوا ملكا له ، أى أن كل ما غنمه يعقوب انما كان ملكا لخاله « لابان » • وقد كانت هذه الإجابة أكبر من محاولة الرد بالحجج اللبقة ، بل انها قد تجاوزت حدود إمكان الدفاع عن النفس الرهين بتلك الظروف • ولكن كلا من الطرفين لم يكن مستعدا للدخول فى معركة • ومن ثم فقد اتفقا على أن يرحلا فى سلام من قبل أن يصلا الى حد إشهار السيوف فى وجه بعضهما البعض ، فاستأنف يعقوب رحلته بغنيمته الكبيرة وعاد لابان خاوى الوفاض الى أهله • ولكنهما قبل أن يفترقا ، نصبا حجرا كبيرا على نحو ما ينصب العمود ، وجمعا فوقه ركاما من الأحجار الأقل حجما ، وأكلا الخبز معا وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام • ومن شأن هذا الركام أن يشير الى الحدود التى لاينبغى أن يتعداها كل منهما بهدف ايذاء الطرف الآخر • وفضلا على ذلك فإن هذا الركام كان بمثابة شاهد عليهما عندما يرحل كل منهما فى طريقه • ولهذا فإن العبريين والسريانيين يطلقون عليه اسم « نصب الشهادة » • وفى نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية ، ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى الصلح ، وإن كان صلحا زائفا • وقد كان يعقوب بدون شك سعيدا بكفاءته السياسية • أما « لابان » فلم يكن راضيا بطبيعة الحال بما حدث • وإنما ظل ساكنا متظاهرا بالرضاء على كل حال • وفى الصباح

الباكر ، استيقظ « لابان » وقبل أحفاده وبناته وتمنى لهم التوفيق وعاد الى أدراجه • أما يعقوب فقد استأنف رحلته الى بلاده •

إن السياق العام للحكاية السابقة ينحو الى أن يبين أن النصب الذى أقامه لابان ويعقوب فى المكان الذى افترقا عنده ، لم يكن نصبا يشهد بصداقتها ومحبتهما وإنما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما فى بعضهما البعض • ومن ثم فقد استخدما ركام الأحجار ليكون ضمانا ماديا على رعايتهما لمعاهدة السلام التى عقداها فيما بينهما • أى أن هذا النصب كان بمثابة إجراء أو وثيقة فى هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما ، حتى اذا نقض أحدهما العهد ، عوقب الخائن • فالنصب الحجرى لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد كومة من الأحجار . بل بوصفه شخصا أو روحا قويا أو إلها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعدهما • ويتضح هذا من خلال الكلمات التى وجهها « لابان » الى يعقوب عند إتمام شعائر العهد فيما بينهما ، فلقد قال له : « ليراقب الرب بينى وبينك حينما يتوارى بعضنا عن بعض ، أنك لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى • ليس انسان معنا ، أنظر ، الله شاهد بينى وبينك (١) » • ومن ثم فقد سمى هذا الركام باسم « برج المراقبة » (المصفاة بالعبرية) ، كما سمى « صخرة الشهادة » ، لأنه كان يقوم مقام الرقيب والشاهد معا •

وينتمى الحجر المنتصب وركام الأحجار اللذان حكت عنهما هذه الأسطورة المثيرة بدون شك ، إلى طبقة الآثار الحجرية الطبيعية التى لاتزال ترى بكثرة فى المنطقة التى تقع فيما وراء نهر الأردن بما فى ذلك جبل جلعاد حيث كان الفراق بين يعقوب ولابان كما تحكى القصة • وقد أشار « كانون تريسترام » الراحل ، الى هذا الموضوع وذلك فى أثناء

---

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٥٠ .

حديثه عن بلاد موآب فقال : « إن جزءا من طريقنا كان يقع إلى جانب وادى « عتابيا » الذى يتجه جنوبا الى « المزرفاء » وهو واد صغير ينحدر انحدارا سريعا • وهناك فى هذا المكان صادفنا لأول مرة . عند منحدر صخرى مرتفع ، ضريحا يتكون من أربعة أحجار خشنه عارية: ثلاثة منها موضوعة على حافة المنحدر مكونة ثلاثة جوانب من شكل مربع ، أما الحجر الرابع فيقع فوقها كما لو كان غطاء لها • ويبلغ طول كل حجر حوالى ثمانية أقدام • وعندما اتجهنا شمالا ، وقعت أبصارنا مرارا على هذه الأضرحة ، بحيث أننا كنا نصادف ما يفوق العشرين منها فى تجوال واحد . ولكنها مشيدة على نحو واحد • وتقع هذه الأضرحة بدون استثناء على جوانب التلال الصخرية ، ولا يقع على قمتها على الاطلاق • فالأحجار الثلاثة الكبيرة الموضوعة على حافة المنحدر ، يقع كل منها جهة الزاوية اليمنى للحجر الآخر ، وهى جميعا تكون دعامة للحجر الصلب الذى يغطيها والذى كان يبلغ طوله من ستة الى عشرة أقدام • وهذه الأضرحة تعد أمكنة يستريح عندها العرب الرعاه الذين طالما أبصرناهم مستقلين فوقها يراقبون قطيعهم • ويبدو أن هذه الأضرحة لا توجد الا فى الأقاليم الذى يقع بين « زاره » (١) « كاليرهوى » و « حشبون » ، اذ أنها لاتوجد على الاطلاق فى الأقاليم المشابهة لهذا الأقليم الذى يقع جنوبا فى هذه المنطقة • على أننى سبق أن رأيت هذه الأضرحة فى أثناء زيارتى لفلسطين . وكان الكثير منها يقع فى الجهات الجرداء من جبل جلعاد فيما بين جبل « أوشع » و « الجرش » • ومن العسير علينا أن ندرك سبب تشييد هذه الأضرحة على جوانب التلال • والشىء الذى يلفت النظر فضلا على ذلك ، هو أننى لم أصادف ضريحا يتكون من أربعة

---

(١) « زاره » هو الاسم الحالى لكاليرهوى . انظر :

P. Abel, Géographie de la Palestine, Paris-Lecoffre Gabada, 1938, Etudes Bibliques, tome I, p. 87.

أحجار سفيلة • فاذا وقع بصرنا على ضريح متهدم ، فإن عدد أحجاره عندئذ يتكون من أربعة أحجار لا أكثر ولا أقل • ونظرا لضحالة التربة ، لم يكن من اليسير اقامة هذه الأضرحة تحت الأرض • وعلى الرغم من أننى لم أجد أثرا لهذه الأضرحة أو أية أضرحة من نوع آخر فى الأماكن المجاورة ، فأنه من المحتمل أن السكان الأولين كانوا قد شيدوها فى أماكن أخرى ، ثم نقلتها الأجناس التى جاءت من بعدهم حتى تستغل الأرض فى الزراعة ، فى حين أنهم لم يمسوا تلك الأضرحة التى كانت تقع على جوانب التلال الجرداء التى لم تكن تصلح للزراعة على الاطلاق • وهناك شىء آخر يجدر بنا أن نذكره ؛ هو أن الطبقات الثلاث من النصب الأولية التى عثر عليها فى موآب ، أعنى الحجر الدائرى والأضرحة وركام الأحجار ، توجد فى أعداد كبيرة فى ثلاثة أمكنة مختلفة فى هذا البلد ، ولكنها لا توجد مختلطة على الاطلاق . فركام الأحجار توجد جهة الشرق فى الطريق الذى يؤدى الى سلسلة الجبال العربية ، والأحجار المستديرة توجد فى جنوب « كالبرهوى » ، وأما الأضرحة فتقع فى شمال هذا الوادى • وربما أشارت هذه الظاهرة الى وجود ثلاث قبائل متجاورة كانت تعيش فى هذه الأمكنة فيما قبل التاريخ ، وكان لكل منها احتفالاتها وطقوسها الدينية الخاصة بها • أما العرب المحدثين • فمن الطبيعى أن يربطوا بين هذه الأضرحة وبين الجن » •

لقد سبق أن رأينا أنه عندما وضع « لابان » و « يعقوب » ركام الأحجار فوق الحجر المنتصب ، جلسا (١) فوق هذه الأحجار وأخذا

---

(١) تترجم الرواية المنقحة هذه العبارة التى ترد فى سفر التكوين الاصحاح الواحد والثلاثين صفحة ٤٦ على النحو التالى : « ثم تناولا طعامهما بجانب هذا الركام » . بينما تقول الرواية الأخرى المعتمدة « ثم تناولا طعامهما فوق هذا الركام » . على أن العبارة المقابلة لهذه العبارة التى ترد فى النص ترجح صحة الرواية المعتمدة على الرواية الأخرى. اذ من المؤكد أن المعنى الأولى للظرف « عند » يعنى « فوق » وليس هناك داع اذن لان

يتناولان الطعام • ومن المحتمل أن تناول الطعام فوق الأحجار يقصد به التصديق على العهد • وربما استطعنا أن نستوضح السبب فى لاعتقاد فى أن تناول الطعام على الأحجار يعد تصديقا على العهد من خلال عادة نرويجية وصفها المؤرخ الدانماركى القديم « ساكسوجراماتيكوس » فقال : « عندما كانت الشعوب فى الزمن القديم تنصب ملكا عليهم ؛ كانوا يقفون على أحجار صلابة الحجر » • فربما كانت الشعوب تعتقد أن صلابة الحجر تمر الى الشخص الذى يقف عليه وبذلك تؤكد قسمه • فنحن نقرأ عن شخص أسطورى بعينه يدعى « راجاه الجاوى » كان يحمل لقب « راجاه سيلا بيرواتا » وهو يساوى لقب « واتو جوننج » وقد خلع عليه هذا اللقب لأنه وقف ثابتا على الجبل كالحجر فاكتسب منه قوته وشجاعته بدون عون أو مساعدة » • وفى الهند عندما يحتفل براهملنى بزواجه ؛ يجعل الزوج زوجته تدور حول النار ثلاث مرات ، وفى كل مرة يجعلها تطأ بقدمها اليمنى على حجر الرحى وهو يصيح بها : « لتطىء بقدمك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته • ولتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك وهذه الشعيرة القديمة التى وضعتها كتب الشعائر الآرية فى الهند الشمالية ؛ تبناها الناس فى الهند الجنوبية خارج نطاق الطبقة البراهمانية •فالزوجان فى هذه المنطقة « يدوران حول النار المقدسة ثم يرفع الزوج بيديه قدم زوجته اليمنى ويضعها على حجر الرحى ؛ ويكرر فعل هذا سبع مرات • وتعرف هذه الشعيرة باسم « سابتا بادى » (أى سبعة أقدام) ، وهى تعد أهم شعائر الزواج وأكثرها تأكيدا للرباط الزوجى • ذلك أن الزوجة تحض على أن تكون صلبة على الدوام صلابة الحجر الذى تضع عليه قدمها » • ويحدث مثل هذا فى الاحتفال

نتجاوز هذا المعنى فى هذا المجال » . (المؤلف) ويؤكد رأى المؤلف عبارة العهد القديم التى تقول « وقال يعقوب لاخوته التقطوا حجارة فاخذوا حجارة وعملوا رجمة واكلوا هناك على الرجمة » . (سفر التكوين الاصحاح الحادى والثلاثون آية ٤٦) .

(المترجمة)

بدخول الغلمان فى مجتمع الرجال عند البراهمانيين • اذا أنهم يجعلون الغلام يطأ بقدمه اليمنى على حجر بينما يرددون العبارة الآتيـــة : « لتطأ بقدمك هذا الحجر ، ولتكن صلبا مثل صلابته • لتحطم هؤلاء الذين يبحثون لك عن أذى ولتنتصر على أعدائك » • وعند الاحتفال بالزواج عند الكوكيين الذين يسكنون شمال « كاشار » • « يضع كل من الزوجين قدما على حجر كبير موضوع وسط القرية • ثم يأتـــى الزعيم (جاليم) ويرشهما بالماء وينطق بعبادة توجه النصائح العامة للزوجين وتحضهما على الإخلاص • ثم يتاركهما ويتمنى لهما الذرية الكثيرة » • ويعتقد سكان مدغشقر أنه من الممكن للشخص أن يتحصن ضد البركة الأرضية المتقلبة ، بأن يدفن حجرا تحت مكان رئيسى فى بيته أو تحت عتبة بابه •

ويمكننا أن نفسر بناء على هذا الأساس ، عادة القسم على حجر فى الوقت الذى يضعفيه الشخص فوقه قدما أو قدميه معا • والغرض من هذا فيما يبدو ، هو أن خواص الحجر التى تتمثل فى صـــلابته وتحمله ، تنتقل على نحو ما الى حالف اليمين ، وبذلك يتأكد الناس من عدم حنثه بيمينه • فقد كان هناك فى أثينا حجر وقف عليه الرؤســاء التسعة عندما أقسموا أن يحكموا بالعدل وفقا للقوانين • كما يقع على بعـــد ضريح القديس كولومبا فى « ايونا » حجر أســـود • ولايرجع هذا الحجر بالسواد الى لونه ، اذ أن لونه رمادى فى الحقيقـــة • ولكنه وصف بهذا اللون نظرا لتأثيره على من يحنث بيمينه ، وذلك اذا ما اتهم شخص بالخيانة بعد أن يكون قد وقف عليه وأقســم اليمـــين بالطريقة المألوفة ، فالأيمان التى تقسم عليه تكون قاطعة مهما تكـــن الخلافات بين المتعاهدين •

وقد سلم « ماك ــ دونالد « ملك الايسليين ، أتباعه ، حقوقهم فى أراضيهم التى تقع فى الجزر والقارة ، وذلك بأن رفع يديه وركـــع على الأحجار السوداء • ثم أقسم أمام كثير من الشهود وهو على هذا

النحو ، أنه لن يعود فيطالب بهذه الحقوق التى منحها لم • وقد كان هذا الإجراء بديلا عن امضائه على صك حقوقهم • ومعنى هذا انه اذا كان الشخص واثقا مما قد عزم عليه ، فإنه يقول بطريقة ايجابية : ان لدى الخيار فى أن أقسم على هذا الموضوع على الأحجار السوداء • وقد كان هناك فى جزيرة « فلادا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهبريد ، حجر أزرق مستدير كان الناس يحلفون عليه أصدق الأيمان • وقد كان من المألوف أن يوضع حجر داخل حائط ملتصق بالبريشة « ليرج » التى تقع فى «سوذر لاندر شاير » ، وكان يسمى حجر العهد • « وقد ذاعت شهرة هذا الحجر بوصفه وسيلة ، بل مقدسة ، لعقد الصفقات وضمان الوفاء بالوعد وتوثيق العهود • فإذا أمسكت الأطراف المتفقة على أمر من الأمور بأيدى بعضها البعض فوق هذا الحجر ، فانهم يكونون بذلك قد الزموا أنفسهم بعهد صارم لا تنتهك حرمته »

وشبيه بهذه العادات تتبعها أجناس بدائية تعيش فى افريقيا والهند • فاذا اختلف شخصان من « البوجيين » الذين يسكنون افريقيا الشرقية عند حدود الحبشة ، فانهما فى بعض الأحيان يفضان نزاعهما عند حجر بعينه يقف فوقه أحدهما ثم يدعو عليه الشخص الآخر بأن تحل به أقسى اللعنات إذا هو حنث بيمينه • وكلما نطق بلعنة رد عليه رفيقة الذى يقف على الحجر بقوله « آمين » • ويقسم « الأكامبيون » الذين يسكنون فى افريقيا الشرقية البريطانية أغلظ الايمان عند شىء يطلقون عليه أسم « كيثيتو » • وهم يعتقدون أن هذا الشىء تتملكه قوى سحرية تقتل الحانث باليمين • وأمام هذا الشىء توجد سبعة أحجار يقف عليها حالف اليمين بحيث يضع كعبيه على حجرين منها • وفى « نايمو » احدى قرى « البانجهوليين » فى أسام ، توجد كومة من الأحجار الغريبة فى شكلها يقف عليها الناس ليقسموا أمانهم المقدسة • وفى « جوشيجونج » التى تقع فى تلال « جارو » فى أسام يوجد كذلك حجر يقسم عليه الناس أكثر أيمانهم قدسية • فاذا قدم

أحدهم ليقسم اليمين ، فانه يصافح الحجر أول الأمر ، ثم يصيح بالاله ، « ماهاديفا » ، ويداه مرفوعتان ومتشابكتان ، وعيناه مثبتتان على التلال ، لكى يشهد على صدق يمنيه • وبعد ذلك يلمس الحجر والفزع يشيع فى وجهه ؛ ويحنى رأسه له ويصيح مرة أخرى بالاله ماهاديفا • وعندما يفصح عن رغبته بعد ذلك يحملق فى التلال ويضع يده اليمنى على الحجر • ويقسم « الجارويون » كذلك وهم واقفون على الأحجار الشهابية ويقولون « ليقتلنى الاله » « جويرا » (الاضاءة) بأحد هذه الأحجار اذا كنت أقول كذبا » • ونلاحظ أن وظيفة الحجر فى هذه الحالة جزائية أكثر من كونها تأكيد للعهد • فالحجر موضوع فى هذا المكان لا لكى يكسب القسم صلابة الحجر بل ليطلب انتقام الله الاضاءة من الحانث باليمين • وربما كان هذا هو الهدف نفسه من القسم « لساموآنى » • ويتلخص هذا القسم فى أنه حينما كان اللصوص يقسمون على براءتهم فى حضرة الزعماء ، فانهم « كانوا يضعون حفنة من الأعشاب على الحجر أو على أى شى اخر يعتقد فى أنه يمثل اله القرية ثم يقول كل منهم وهو واضع يده على الحجر : « اننى أضع يدى على الحجر فى حضرة زعمائنا المجتمعين ، فاذا كنت قد سرقت الشىء المعنى فلامت فى الحال » •

فالحجر فى هذه الحالة الأخيرة ، وربما فى بعض الحالات الأخرى ، كان ينظر اليه على أنه ممتلك لروح الهى يمكنه من أن يسمع القسم وأن يحكم على صدقه وأن يعاقب الحانث باليمين • فالأيمان التى كان يقسم بها على الأحجار التى كان لينظر اليها على أنها آلهة على وجه التأكيد ، كانت كما هو واضح ذات طابع دينى ، حيث أنها كانت تتضمن نداء الى القوى الخارقة للعادة أن تحل غضبها بالآثم • على أن الحجر فى بعض الأمثلة الأخرى السابقة ، كان يظن فيما يبدو ، أنه يؤثر تأثيرا مباشرا من خلال خواصه الطبيعية التى يتميز بها وهى الثقل والصلابة وخاصية القصور الذاتى • وبناء على ذلك فان القسم فى هذه الحالات ، أو فى أية احتفالات أخرى ، به طابع سحرى صرف • فالرجل يكتسب

خواص لحجر القيمة ، تماما كما يكتسب شحنة كهربائية من بطارية • أى أن الشخص يصاب بالصاعقة فى الحالة الأولى ويكتسب شحنة من الكهرباء فى الحالة الثانية ، اذا أمكننا أن نستخدم هذا التعبير • على على أنه ليس من الضرورى أن يكون كلا من المغزى الدينى والسحرى للحجر متميزين على هذا النحو فى أذهان المقسمين ، ذلك أن الغموض والاختلاط يعدان من مميزات الفكر البدائى • وربما كان من واجبنا على الدوام أن نحلل هذا الخلط الغريب الى عناصره •

ويبدو أن هذين الضربين المختلفين من التفكير ، أعنى التفكير السحرى والتفكير الدينى قد تداخلا فى حكاية العهد الذى تم بين يعقوب ولابان عند ركام الأحجار كما تروى فى الكتاب المقدس • فمن الواضح أن الطرفين المتعاهدين من ناحية ، قد خلعا صفتى الحياة والادراك على الأحجار وعندما نادا عليها فى خشوع أن تشهد على اتفاقهم ، تماما كما سأل يوشع الحجر الكبير الذى كان يقع تحت شجرة البلوط لكى يكون شاهدا على العهد الذى تم بين الرب التى تحدث بها الى بنى اسرائيل • (١) فركام الأحجار أو الحجر الكبير الذى كان يوضع منتصبا وسطها ، كان أشبه بتمثال « يانوس » (٢) الذى كان له رأسان ينظر بهما فى اتجاهين لكى ينظر بعيون يقظة الى كل من الطرفين المتعاهدين • ومن ناحية أخرى فربما كان أفضل تفسير لتناول الطعام

---

(١) من الأفضل أن نشير هنا الى نص التوراة وهو : « وكتب يوشع هذا الكلام فى سفر شريعة الله . وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب . ثم قال يشوع لجميع الشعب : ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » .
(سفر يوشع . الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٦ ، ٢٧) .
(المترجمة)

(٢) اله الأبواب والبدايات عند الرومان .
(المترجمة)

على ركام الأحجار . ان كان يمكن لهذا التفسير أن يكون سليما ، هو أنه محاولة لاقامة علاقة ودية بين الطرفين المتعاهدين بتناولها طعاما واحدا فى الوقت الذى يدعم فيه عهدهما عندما يكتسب من الأحجار التى جلسا عليها ، صفتى القوة والصلابة .

واذا كان القارىء الذى ينحو تفكيره الى الشك ، ما زال يتشكك فيما اذا كانت الأرض التى يقف عليها الشخص يمكن أن تؤثر فى قيمة القسم الأخلاقية ، فاننى أذكره بعبارة « بروكوبيوس » التى يمكن أن تزيل شكه . فقد أخبرنا هذا المؤرخ المدقق عن طريقة استطاع بها ملك فارسى أن يستخلص الحقيقة من شاهد ثائر ضده وكان يميل ، بل يسعى دائما ، لأن يحنث بايمانه . فعندما اعتلى « باكوريوس » عرش بلاد الفرس ساوره الشك فى أن « أرساكيس » ملك أرمينيا التابع له ، قد دبر ثورة ضده . فأرسل فى طلبه وواجهه بخيانته له . فرد ملك أرمينيا عن نفسه هذه التهمة بمهارة . وأقسم بكل الالهة بأن مثل هذا التدبير لم يطرأ على ذهنه قط . وعند ذلك دبر ملك الفرس خدعة أرشده اليها سحرته ، يتمكن بها من فضح الخائن ، فأمر بأن يفرش بلاطه الملكى بروث الحيوان ، بحيث يفرش نصفه بروث فارسى ، والنصف الآخر بروث أرمينى ، ثم سار مع مواليه على هذه الأرض وهو يؤنبه على نواياه المخادعة . وهنا بدأ التناقض الغريب فى دفاع الملك الأرمينى عن نفسه ، اذ أنه كان كلما وطئت قدماه على الجزء المفروش بالروث الفارسى ، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه أخلص خادم للملك الفارسى . ولكنه ما أن ينتقل الى الجزء المفروش بالروث الأرمينى حتى تتغير نغمة حديثه ، واذ به ينهال على مولاه ويهدده بالانتقام من اهانته له ، ويعدد له ما يمكن أن يفعله ضده اذا ما استرد حريته . فاذا عاد وداس بقدمه جزء الأرض المفروش بالروث الفارسى عاد الى تذلله وتضرعه ، واستخدم كل أساليب التذلل فى طلب العفو من مولاه . وبهذا نجحت الخدعة وافتضح الخائن . ولكنه لما كان

يجرى فى عروق هذه الخائن الدم الملكى حيث أنه كان « أرساكيدى » فان ملك فارس لم يأمر بقتله ، وانما عاقبه كما يعاقب الأمراء المذنبين ، فحبس طيلة حياته فى سجن يسمى « قلعة النسيان » • وسبب هـذه التسمية هو أن السجين اذا اجتاز مدخله الكئيب وأغلق الباب دونه ، فلا ينبغى لأحد أن يذكر اسمه والا أعدم • وفى هذا السجن كان يدخل الخائنون ويظلون به حتى تفسد أجسامهم ، وفى هـذا السجن قضى ملك أرمينيا الخائن باليمين بقية أيام حياته •

ويبدو أن عادة تشييد ركام الأحجار بوصفها شاهدا على العهـد لم تنقرض فى سوريا حتى اليوم • فمن أشهر الأضرحة التى توجـد هناك ضريح هارون الذى يقع على جبل هور (١) • ويزور الحجاج هـذا القبر ويتضرعون للنبى هرون أن يشفى مرضاهم ، ثم يجمعون الأحجار ويشيدونها فى شكل قبوة لتكون شاهدا على الأيمان التى يقسمونها على لسـان مرضاهم •

---

(١) اسمه الحالى : جبل عكار ـــ
P. Abel, op. cit., I. p. 302.